Dirassat

Volume 22
Number 23 الإنسان والمجتمع

Article 1

2020

روايات أگادير

أحمد التوفيق
أستاذ باحث في التاريخ

Follow this and additional works at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat

Part of the Comparative Literature Commons, and the History Commons

Recommended Citation
التوفيق, أحمد (2020) "روايات أگادير," *Dirassat*: Vol. 22 : No. 23 , Article 1.
Available at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol22/iss23/1

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on Digital Commons, an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aaru.edu.jo, marah@aaru.edu.jo, u.murad@aaru.edu.jo.

روايات أگادير

أحمد التوفيق
أستاذ باحث في التاريخ

أتخيل أن لهذه المدينة، أگادير، روايات لا تحصى، منها هذه الأربع الظاهرات :

رواية مع البحر، ورواية مع البر، ورواية مع ما تحت الأرض، ورواية مع المكابرة.

أما رواية أگادير مع البحر فبسبب موقعه، كانت في ماضيها رواية فيها الرهبة والرغبة، الرهبة من الأجنبي، والرغبة في التعامل معه، فمعنى اسم أگادير الحصن، وكان اسمه في التاريخ، أگادير نيغير، أي حصن العرف أو حصن المنكب، والعرف المقصود هو الجبل المجاور، كانت عليه مدافع، لأن البحر كان مصدر مخاوف، امتدت إليه أطماع الإيبيريين منذ بداية القرن السادس عشر، وقام فيه مركز قرب عين ماء، ومنها جاء اسم فونتي، ومنذ ذلك التاريخ بدأ بروز نشاط أگادير التجاري مع الدول الأوروبية بمبادلات كانت فيها مصنوعات من الشمال وبضائع من المغرب، فيها قصب السكر والتبر ومجلوبات من الصحراء.

وقد توالى اهتمام الأوروبيين بالمركز التجاري بأگادير، فكانت فيه طائفة من تجار المسلمين وطائفة من تجار اليهود وطائفة من تجار النصارى الأجانب، وتداولت الحوادث حوله بسبب هذا الاهتمام بين طمع الأجانب واستبداد الأعيان وحرص المخزن على استقلاله، وظهر في عمق قبائل سوس شيء من النظر السلبي إلى ما كان يجري فيه مما يخالف حياة البداوة، والتحفظ منه على عادة ما هو معروف من مواقف الفلاحين من أخلاق التجار. أما لمواجهة الأطماع الأجنبية في التسلل من الجنوب فقد كان رأي الدولة في منتصف القرن الثامن عشر أن حسم تلك المادة لا يكون إلا بإنشاء مرسى قريب يكون أدخل في المملكة يُنقل إليه نشاط أگادير التجاري، فكان هو مرسى الصويرة، وكان من نتائج إغلاق أگادير موقتا القضاء على تجارة الأسلحة في جهات سوس.

وبعد عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي أمر بالنقل المذكور، عاد النشاط إلى مركز أگادير في عهد ولده مولاي سليمان، حيث بدأ في الأعوام الموالية للثورة الفرنسية يصدر الحبوب إلى أوروبا.

وتوصلت سلطة الدولة على أگادير بالرغم من استمرار المناوشات الخارجية والداخلية، وفي عهد مولاي عبد الرحمان أُغلق المركز مرة أخرى في وجه التجارة، ثم تجدد النشاط في عهد مولاي الحسن حيث كان للدولة مشرفون على الضريبة التجارية (المستفاد) من القواد المعروفين المتتابعين، من أشهرهم قائد القبيلة المجاورة أحمد الگسيمي، وخرجت أگادير سالمة من إعصار الأطماع الأجنبية، ولما حاول الإنجليزي ماكنزي الاستيلاء على طرفاية تجددت أطماع الفرنسيين والإسبان في أگادير.

وفي أوائل القرن العشرين كانت مجموعة الأعمال مانسمان الألمانية تقوم

بتنقيبات عن المعادن في جهات سوس، وبدعوى حماية مصالحها جاءت الباخرة الألمانية بانتو ورست أمام أگادير عام 1911، وكان الغرض هو تهديد المشروع الاستعماري الفرنسي الوشيك قصد الابتزاز والحصول على تسويات بين فرنسا وألمانيا في خريطة الاستغلال في العمق الإفريقي. هذه إشارات عجلى إلى رواية الحصن مع البحر.

هذه باختصار رواية أگادير مع البحر، أما روايتها مع البر، فالقصد بها علاقة الموقع بحكامه، فقد توالى على هذا المركز التجاري الحرص الدائب للدولة بما يبعد عنه أطماع الأجانب في الاستيلاء، ولاسيما بعد خروج الإيبيريين للكشوف الجغرافية في العالم، وكان دفاع أهل سوس عن أگادير في القرن السادس عشر مدار قيام دولة جديدة هي الدولة السعدية، حيث حرر المجاهدون هذا المركز عام 1541. أما في عهد الدولة العلوية فقد نجحت السياسة المتبعة في إيجاد صيغ تبقي على التجارة ما لم يكن في ذلك خطر على السيادة، وبصفة عامة فقد توالى على أگادير حضور ممثلي الدولة تارة ومحاولات استبداد ثوار محليين تارة أخرى، إلى غاية بداية القرن العشرين، ولم تكن أگادير في ذلك الوقت سوى قرية صغيرة عدد سكانها أقل من ألف نسمة، يحكمها الحاكمون من البر القريب، كان منهم قائد كسيمي داره في إنزكان، البلدة المجاورة، وحيث إن القبائل في جبال سوس ظلت تحارب الاستعمار فقد أثر ذلك على نشاط أگادير التي لم تستأنف نشاطها التجاري إلا في عام 1927، أما القائد القبلي الذي حكمها من إنزكان بعد أن دخل دار قريب له كان معارضا مناصرا للهيبة بن ماء العينين، فقد وصل حبله بحبل المحتلين وأطلقوا يده في البلاد، فكان منذ عام 1913 نموذجا للطاغية السفاك المسكون بالوساوس، أورد بعض أخباره الأستاذ المختار السوسي في كتابه المعسول، نعرض عن فظائعه ونورد من أخباره نكتتين مضحكتين على حد قول

المتنبي ضحكا كالبكاء، النكتة الأولى تحكى عنه أن الشاعر المغني الأمازيغي الشهير الحاج بلعيد قد مر عليه في بلدته إنزكان حاملا معه رسالة من باشا مراكش التهامي الگلاوي، فإذا في الرسالة عتاب له على شططه في التحكم في رقاب محكوميه، ونصيحة له بالاعتدال، ولما قرأ الحاكم الرسالة استشاط غضبا وحسب أن الذي بلغ عنه هو الشاعر المغني، فأراد أن يعاقبه، فأودعه مطمورة وسد بابها وترك السجين بلا نور ولا هواء.

وبلغ حريم القائد الحاكم خبر وصول الشاعر المغني وكان نجم الشعر والغناء في وقته، وتألم الحريم لما لقيه المغني من القائد، وكان نساء الحريم تتقدمهن زوجته المحظية الأصغر يُخرجن السجين من حفرته إذا غاب القائد عن الدار في جولاته، ليغني لهن وهو على شفير الحفرة، وإذا رجع القائد واقترب من الدار قام نساء الحريم بدفع المغني الشاعر في حفرته، وكأن شيئا لم يكن.

كانت سيدة الحريم محبوبة أثيرة عند صاحبها، فما زالت تتغنج عليه وتتوسل في موضوع الشاعر حتى قبل أن يسرحه، ولكن القائد أمر بأن يكون تعذيبه قبل الانصراف بأن يقضي يوما وليلة وهو تحت الحراسة يغني بدون انقطاع في وسط ساحة سوق إنزكان.

أما النكتة الثانية فتحكي أن سيدة حريم القائد كانت تعير الزوج القائد بأن داره ليس فيها برج تجلب نوافذه النسيم العليل مثل برج دار أبيها، وكررت ذلك التعيير وكررت، وكان قصرُ الصهر والدها على أميال معدودة من أگادير، وفي يوم من الأيام تلقى القائد دعوة من السلطات الفرنسية لكي يتوجه على بغلته إلى أگادير حيث رست أمامه بارجة فرنسية تريد السلطات الاستعمارية أن يزورها هذا الحاكم ليعلم وجها آخر من القوة العسكرية للدولة الحامية. فلما صعد القائد على

البارجة وطاف بها سأل عن مدى وصول قذائف المدافع التي على جوانبها، فقالوا له إن مدى الرماية يعد بالأميال، فقال لقائد البارجة: هل ترى بنظاراتك المقربة ذلك البرج الذي يبدو في الأفق؟ فقال القائد العسكرى: نعم، فقال القائد إن صاحبه خارج عن طاعتي وطاعتكم، فهل تستطيعون أن تدمروا أبراجه الأربعة. فأمر الضابط بالتسديد فإذا برج دار الصهر قد صارا غبارا متطايرا يملأ الأفق، فلما عاد إلى داره في المساء وجد في جنبات الدار النحيب والبكاء، وارتمت المحظية في حضنه تشكو مما نزل بأبيها وداره، فأظهر غضبا ومواساة ووعد بالانتقام من الفاعلين، وفي الغد ركب فرسه متجها إلى أگادير يظهر العزم على الانتقام، وكان يعرف أن البارجة مع الشروق ستغادر في اتجاه ميناء سان لوي بالسنغال.

في ما بعد الحرب العالمية الثانية كان سكان أگادير، تالبرجت، حوالي سبعة آلاف نسمة، هاجر معظمهم من قبائل الساحل، ما بين الصويرة وإفني ومن وادي سوس، منهم ألف وخمسمائة من الصيادين فيهم إسبان وبرتغاليون. كما كان منهم سكان من البورجوازية الإدارية الصغيرة، ودخلت أگادير فجأة في مغامرة الحياة البروليتاريا، لاسيما بعد بناء الميناء الجديد عام 1953، تجديدا للميناء العصري الذي يرجع إلى عام 1910.

أما رواية الموقع مع ما تحت الأرض فبسبب ضربة الزلزال، يذكر التاريخ أن ضربة سابقة وقعت عام 1731، وقد هدمت جزءا من عمارته البسيطة، ولم تترتب عنها هجرة المكان، وأما الثانية فقريبة منا في الزمن، إذ جاءت عام 1960 لتكدر أفراح المغاربة بالاستقلال الفتي، وغمرت قلوبهم بحزن لم يخفف من ألمه سوى قوة التضامن، وكانت بمثابة تطعيم وتأبير لشجرة امتدت إثره أغصانها في كل اتجاه، وأظهرت إعادة بناء أگادير الجديدة أن الإنسان أُكرم بالقدرة على نسيان الألم وبإرادة التحدي.

يفضي بنا الكلام عن التحدي إلى الرواية الرابعة، رواية المكابرة التي عاشتها أگادير خلال الأعوام الستين في القرن العشرين وما تزال تعيشها إلى اليوم، مكابرة الحفاظ على روح سوس في طهرها البدوي المطبوع بالقلة، الحفاظ عليها في حمأة مركز حضري آخذ بكل أسباب التطور، ومن تلونات هذه المكابرة:

أولا- تأثير هجرة السوسيين إلى أوروبا وإلى المدن المغربية الكبرى في الشمال، لممارسة التجارة خاصة، تأثيرها الإيجابي على عقلياتهم في اتجاه تقبل التحول العصري الذي شهدته أگادير في ظرف وجيز؛

ثانيا- تأثير تلك العقلية المتغيرة بسبب الهجرة على الاستعداد للإسهام في الانفتاح للسياحة الدولية؛ وللسياحة توابعها، أذكر أنني في أعوام الثمانين من القرن الماضي عندما كنت أقضي بعض أيام الصيف في أگادير، كان عام جفاف وجاءت الكلاب من البادية إلى المدينة، وكثرت في منطقة الفنادق منها خاصة، وقرر مجلس المدينة أن تخرج مصالحه المختصة ذات صباح لقتل الكلاب أمام أعين السياح، وفي اليوم الموالي خرجت في صحف الدول الإسكندنافية احتجاجات على رئيس مجلس أگادير مطالبة بمحاكمته على جريمة قتل الكلاب، ولو أن كلبا عض سائحا أو سائحة لكانت الضجة أكبر، لأن الرئيس لم يرب كلابه ولم يوفر لها التعقيم والدواء والغذاء.

ثالثا- القدرة على الحفاظ على الثقافة المحلية بالرغم من التكيف العميق والسريع مع مستلزمات التطور الاقتصادي في أگادير، ومن علامات هذه المحافظة الحرص على اللغة الأصلية في المحيط العائلي؛

رابعا- الاعتراف على صعيد التعدد الوطني لأگادير بشخصية ثقافية خاصة تجمع بين المحافظة والانفتاح؛

خامسا- تشجيع الشخصيات الروحية والعلمية لذويهم من الجيل الموالي بعد أعوام الستين للمضي في هذا الانفتاح دون تشنجات ولدت النزوع إلى التطرف أو الانغلاق في مناطق أخرى؛ فما أبعد أگادير اليوم عن منتصف القرن الثامن عشر عندما ثار أحد الدعاة الكرسيفيين باسم الغيرة على الدين، وبطش بكثير من أهل هذه البلدة ونادى في قبائل سوس متهما أهل أگادير بأنهم ما بين نصراني ويهودي ومسلم مارق؛

سادسا-كان من التجليات العصرية للجانب الطهوري من هذه الشخصية ما ظهر في هذه الجهات من نزوع إلى اليسار السياسي في العقود الثلاثة الموالية للاستقلال؛

سابعا- التميز على الصعيد الوطني بأخلاق التقلل في المعاش، وهي منقبة دينية وإنسانية، قد تتندر بها بعض الأوساط المتفسخة؛

ثامنا- التميز بالجلد في العمل، في إطار التماسك العائلي وصرامة احترام الصغير للكبير؛

تاسعا- التميز بالمهارة في الأشغال؛

عاشرا- التميز بالتواضع في المعاملة دون أن يكون ذلك من تحايل التجار.

هذه بعض عناصر الرواية التي سميناها برواية المكابرة، ولا نتوفر على دراسات ترصد التغيرات التي وقعت في هذا المجتمع ومدى الاتصال أو الانفصال بين الأجيال بالنسبة للثقافة العملية والخلقية للآباء، وبمعنى آخر فالتساؤل الوارد هو كالآتي: كم ستظل الثقافة والأخلاق المحلية تكابر وتقاوم أمام التعرية التنميطية بتأثير السوق وعواقب الاختلاط؟

ولا أظن أننا بهذا الكلام قد ابتعدنا عن الأدب لفائدة التاريخ أو الجغرافيا، لأن استمداد الكتاب في الرواية الإبداعية الدرامية له خلفياته في كل فضاء إنساني يتناوله الحكي، وهو استمداد يتطلب حساسية تسبر أغوار الشخصية المرجعية المنتمية للزمن الطويل من جهة، والرصد الثاقب للتحولات في الزمن الأسرع من جهة أخرى، وهذا السبر هو الذي يكشف عنه النقد في خلفية كل الأعمال الروائية الكبرى، وإذا غاب لم تحضر سوى الأوشام النمطية السطحية، مهما كانت الحبكة الخيالية بارعة، من هذا المنظور سقنا هذه العناصر ونحن نفكر في الرواية الأدبية التي نرى أن التمرد المجاني لا يكفي فيها حتى تستوي على سوقها.